فتح مكة
في روايات الغربيين

رواية ابن بشر لدخول الوهابيين مكة ناقصة جداً ، فهو لا يشير إلى دفاع مكة الطويل، ولا يذكر شيئاً من الأخبار عما حدث خلال مقام سعود في مكة مع ان فتح مكة حدث جليل يستحق الكثير من العناية ..

لذلك أحببنا أن ننقل بعض ما رواه المؤلفون الغربيون عن فتح مكة ، ثم نذكر رواية المقامات فأقوال ابن دحلان ، فالجبرتي .

رواية بركهارت :

قال بركهارت :

(بعد احتلال الطائف ، تقدم سعود ورجاله نحو مكة ، واتخذوا معسكراً لجيشهم : (الحسينية) ، حيث كان أهل مكة الأغنياء يقضون فصل الصيف ، وهي على بعد ساعة ونصف من مكة ، ومن هناك أرسلوا رجالاً احتلوا «المعابدة» وقصر الشريف غالب ، ثم أخذوا يرسلون رجالاً لمناوشة أطراف مكة ، وقد قاومهم رجال غالب، ولكن المكيين لقوا عناءً كبيراً ، لأن سعود — الذي كان استولى على عرفات — قطع المياه عن مكة، وهكذا بقي المكيون محصورين يعانون شدة العطش وقلة المؤن، وقيل إن بعض المكيين أكلوا القطط والكلاب..

وأخيراً رحل الشريف غالب إلى جدة ، مع جميع أفراد أسرته ، وأخذ

معه كل ما كان في قصره من أثاث وأمتعة ، ثم أحرق القصر ، حتى لا يسكنه خصمه ...

وبعد يوم واحد من رحيل غالب ، ذهب رؤساء الشعب المكي إلى سعود لتسليمه البلد وإعلان الطاعة والولاء ، فقبل سعود ذلك منهم ، ودخل مكة في نفس اليوم ...

وان أهل مكة ليذكرون بشعور الرضا والعرفان أن الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة، ولم يرتكبوا فيها أية قسوة أو هفوة ، وقد افتتحت الحوانيت في مكة بناء على أمر سعود فصار الوهابيون يشترون منها حوائجهم ويدفعون أثمانها نقداً .

وقد ذكر سعود للعلماء الذين تحدث اليهم أنه كان قادراً على أخذ مكة واقتحامها بالقوة منذ زمن طويل ، ولكنه آثر الصبر والإنتظار حتى لا تقع على سكانها أمور يكرهونها، وأنه رأى في نومه النبي ﷺ فتوعده بالموت خلال ثلاثة أيام إن هو أخذ من أهل مكة حبة بر اغتصاباً [1] .

ونستطيع القول إن أهل مكة أصبحوا الآن « وهابيين » يؤدون الصلوات في مواعيدها في المساجد ، وقد خلعوا عنهم ثياب الحرير، وامتنعوا عن التدخين بل جمعوا أدوات التدخين ومواده على اختلافها وأخذوها إلى معسكر سعود حيث أُحرقت وأُتلفت ..

أقام سعود الشريف عبد المعين أميراً على مكة ، واختار شيخاً من الدرعية يدعى (ابن نامي) قاضياً لمكة ، وكان هذا القاضي نزيهاً عادلاً سريع الفصل في القضايا ، وعرف له المكيون فضله ، وقارنوا بينه وبين القاضي التركي ، الذي أرسلته اليهم استانبول ، وكان غارقاً في الرشوة .

أما الدعاء للسلطان العثماني من فوق منابر مكة ، فقد أُبطِلَ تماماً) .

(١) لم نجد هذه القصة إلا في كتاب بركهارت .

رواية كورانسيز :

ويقول كورانسيز :

(كانت سلطة عبد العزيز في ازدياد ، يوماً بعد يوم ، وقد زاد استيلاؤه على كنوز العراق في سمعة ثرائه .. وكان النـاس يستسلمون اليه لأنهم كانوا يخشون شدة انتقامه من أعدائه الذين يحاربونه !

كان يبـدو ان أحداً لا يستطيع الوقوف في وجهه ، وكانت حالة من الذعر مسيطرة على الشرق العربي كله ، وفي هذه الفترة ، عزم عبد العزيز على أخذ مكة ..

... أفاد عبد العزيز من الخلاف القـائم بين الشريف غالب وبين أخيه عبدالمعين، فعبدالمعين هو الأخ الأكبر وكان، لهذا السبب، أحقّ من غالب بمنصب الشرافة ، وكان مستعداً لمقـاومة أخيه والسير مع عبد العزيز ، لذلك طلب عبد العزيز من الشريف غالب أن يترك منصب إمارة مكة لأخيه ، ولما رفض ، سارت جيوش عبد العزيز إلى مكة .

معركة مع عبد الله العظم ومفاوضته :

كان عبد الله باشا العظم ، والي دمشق، متجهاً نحو المدينة ، بقافلة من حجاج الشام،فلما وصل إلى (مزيريب) أوقفته جماعة مسلحة تتألف من (٤٠٠) وهابي، وطلبوا منه دفع مبلغ كبير من المال حتى يأذنوا له بمتـابعة طريقه ، فرفض ، وجرى بينهما قتال سقط فيه عدد من الوهابيين ، ثم تابع عبد الله مسيرته ، ولما وصل الحجاز، بعث كتاباً إلى سعود ، يقول فيه انه اضطر إلى المقاومة والقتال، لأن رجال سعود المسلحين اشتطوا كثيراً في مطالبهم ،ولم يكن مثل هذا يُصنع مع الحجاج من قبل ، وسأل سعود رأيه في هذه المسألة ؟

فأجابه سعود : الحق معك ! وأنا لم آتِ إلى هنا لأحارب السلطان . وأنت معذور في قتالك ، وأنا لا أريد أن أقاتلك ، وإنما جئت لمقاتلة الشريف غالب وحده ، وسأخرجه من مكة، وأجعل مكانه أخاه عبد المعين ، وأنت تستطيع البقاء في مكة ثلاثة أيام تتجهز خلالها لمغادرتها مصحوباً بالسلامة !

كان عبدالله باشا يصطحب معه الشيخ أدهم ، قاضي القدس ، الذي سافر إلى استانبول ، وطلب من مفتيها وأصحاب الشأن فيها أن يأذنوا له بسعى يقوم به للتقريب بين العثمانيين والوهابيين ، لأن التفاهم ممكن ، إذا تخلى كل من الجانبين عن تشدُّده في بعض المسائل المختلف عليها ، فأذنوا له بالقيام بمسعاه ووعدوه أن يتساهلوا في بعض الامور ، فسافر الشيخ أدهم إلى الشام ، ليتابع منها سفرته إلى الحجاز ونجد ، ولكنه خاف من تعريض حياته للخطر ، إذ بلغه تشدُّد الوهابيين في أمورهم وعدم استعدادهم لسماع ما ليس يعجبهم .. ولكن عبد الله باشا أكرهه على الذهاب اليهم .. ولا نعرف ماذا جرى له ، فقد احتجبت عنا أخباره !

في مكة ، لجأ الشريف غالب إلى عبد الله باشا ، ليقوم بمصالحته مع سعود ، فرفض سعود كل كلام في الصلح ، وهكذا غادر عبد الله باشا مكة إلى المدينة ، فهرب الشريف غالب ، ومعه باشا جدة ، إلى جدة .

سعود في مكة :

دخل سعود مكة ، وعاملَ سكانها برفق ، ولكنه قتل قاضيها العثماني «منيب أفندي» لأنه قاوم الوهابيين علناً ، وعاقب كذلك عشرين شيخاً عارضوه بشدة ، أما سائر المشايخ فقد أظهروا القبول والتسليم .

خرّب سعود الأضرحة (١) .. وخرب كذلك « الدكاكين » التي أقامها أهل مكة للبيع في موضع الطواف .. وأقام في قلعة مكة حامية وهابية ، وجعل عليها رجلاً من قِبَله ، كان حاكم مكة « الفعلي » ، أما عبد المعين فقد ولاّه سعود شرافة مكة ، ولكنه سلبه حقيقة السلطة ، بما جعل لأمير الحامية الوهابية من سلطان في مراقبة أعماله ..)

(١) لم يخرب سعود الأضرحة ، وإنما أمر بتهديم القباب والأبنية المشيدة عليها لما يقع بسببها من المحرمات ..

تقرير بريطاني سري عن احتلال مكة :

نشرت مؤسسة الدراسات الإسلامية في جامعة باريس عام ١٩٥٠ تقريراً بريطانياً سرياً عن احتلال مكة ، كتبه مستر جون باركر في يونيو عام ١٨٠٣ م في مدينة حلب وكان موصفاً كبيراً في السفارة البريطانية في استانبول .

هذه ترجمة التقرير ، في شيء قليل جداً من التصرف :

(وصلت حلب أخبار تدمير المواقع الأثرية المقدسة في مكة ، فأحدثت في نفوس الأهلين أثراً عميقاً من الحزن والأسف والرثاء لا يستطيع أحد وصفه .

وكانت الطريقة التي وصل بها هـذا الخبر إلى حلب ، لا تدع مجالاً للشك في صحته .

وذلك ان العادة جرت منذ القديم ، على أن يذهب (جوخدار) إلى الباب العالي في استانبول ، لإبلاغه وصول قافلة الحجاج بالسلامة إلى (مزيريب) في طريق عودتها ، وهي أقرب بلدة شامية إلى الحجاز ، تقع على بعد ثلاثة أيام من دمشق . وعند وصول الحجاج إلى مزيريب انفصل عنهم الجوخدار ، وقصد إلى استانبول ، ومر في طريقه بحلب وأذاع هذه الأخبار . وكان يحمل معه رسائل الى عدد من شخصيات البلد كتبها الحجاج في المزيريب بتاريخ ٢٧ و٢٨ مايس. ان هذه الرسائل تتحدث عن وصول سعود الوهابي على رأس عدد لا يحصى من أنصاره الى مسافة قريبة من مكة ، ولم يكن هنالك شك في نيته العدوانية ، بعد أن عرف أسلوب تصرفه في مشهد الإمام حسين ، ولذلك قام آمر القافلة عبد الله باشا ، حاكم دمشق ، بمفاوضته ، وقد نجح بعد متاعب في حمل الأمير الوهابي على الوعد بأن يؤجل الاستيلاء على مكة الى نهاية الحج ، وألا يتعرض بأذى للحجاج عند سفرهم .

ونجاح المفاوضات يعود أكثره الى أن عبد الله باشا ، كان في العام الماضي ، لأسباب (ومصلحة قدرها . .) اعتنق سراً عقائد الفرقة الجديدة الوهابية . وهذا العمل السياسي البارع ، ساعد على انقاذ عشرة آلاف مسلم ، ولولا ذلك لكانوا مضطرين

اما الى هجر عقائدهم الأساسية واما الى الموت،اذا ما تمسكوا بمعتقداتهم...

بعـــد اليوم الثالث من سفر الحجاج من مكة ، لحق بهم عدد من المتخلفين الذين شاهدوا دخول الوهابي إلى مكة ، بعد ذهاب قافلة الحجاج . ويقول هؤلاء أن سعود ورجاله حبسوا « منيب أفندي » وقتلوه ، غير مبالين بمكانته ، فقـد كان كبير قضاة مكة ، وهو منصب تقلده من الباب العالي ، ثم قتلوا عدداً من الموظفين الصغار ، وأمر سعود بهدم المباني الشركية ، وأن تُسوّى ، او تُهدَم ، كل الأماكن التي تخالف مبادىء الدعوة .

ويقـال إن شريف مكة استطاع الهرب ، قبيل دخول الوهابيين . ويقال أيضاً إن الوهابي سوف يذهب إلى المدينة ، حيث يوجد كثير من الأشياء الثمينة التي لا تقدّر بثمن ، قدمت منذ أزمان متطاولة إلى ضريح النبي .

ومع ذلك فإن المدينة ، وإن تكن أصغر من مكة ، إلا أنها تملك تحصينات حسنة ، والسكان ، الذين يعرفون الخطر الذي يتهددهم ، مصممون على الدفاع عن ضريح نبيهم ، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون باستحـــالة استمرارهم في الحصار أكثر من ثلاثة أشهر ، إلا إذا تلقوا عوناً ، او قام هجوم آخر يشغل العدو عنهم .

لقـد قرأت في كتاب من مفتي دمشق إلى مفتي حلب أن (آدم أفندي) ، وهو من رجال الفقه الذين يعتمدهم الباب العالي،قد أرسل أخيراً إلى مكة ليطلع على عقائد الوهابيين ومصادرهم ومشاريعهم .. وقد كان مع الذين سيعودون إلى استانبول من الحجاج، ولكنه لما علم بدخول الوهابيين الى مكة، دفعته حماسته، او الزهو ، الى مقابلة الأمير الوهابي ليعيده عن « بدعته »، فيما يزعم ، او ليحمله على تلطيف « قسوته » ضد أماكن العبادة المقدسة .

إن نتائج الحادث الذي يؤلف موضوع هذا التقرير خطيرة جداً . فالسلطان العثماني هو السلطان الوحيد الذي يلتمس منه جميع المسلمين الحماية وينادونه باسم « حامي المدينتين المقدستين : مكة والمدينة »، ولكنه حسب القانون الإسلامي

يفقد حقه بهذا الامتياز ، متى كان غير قادر على تقديم المساعدة لحماية الأماكن المقدسة وصيانتها من كل عدوان .

هنا.. بدأ الناس يقولون جهراً إن هذا الحادث يحررهم من واجبات الولاء ، وأخذ الاستياء يعمّ كل الطبقات، ويتحدث الشعب الآن بنبوءة قديمة .. ذكرتها الكتب ، وهي ان العثمانيين تنتهي دولتهم برجل اسمه (سليم) .

إن أهل هـــذه المنطقة بالإجماع متشبعون بهذه العواطف ، والواعون منهم مقتنعون بأنه لن يمر غير قليل حتى يقذف الوهابيون بجموعهم ... ضد دمشق وحلب !

ولكن هذه المخاوف ، في رأيي المتواضع ، مسرفة .. وستمر سنوات طويلة قبل أن يتمكن الوهابيون ، — الذين لا تمدهم دولة أوروبية بأسلحة حديثة — من الهجوم على مدن قوية مثل دمشق وحلب) .

وبعد أن يتحدث واضع التقرير عن نشوء الوهابية ومعتقداتها، ينهي تقريره بهذا السؤال :

(رؤساء الأتراك..أتراهم يصنعون شيئاً لإنقاذ مكة وحماية الأماكن المقدسة، بعد كل هذا الذي حدث ؟

أم يعمدون إلى كَمّ أفواه الناس .. حتى لا تعمّ الفوضى ويشتد الاستياء ضدهم ؟

لو أن مثل هذا حدث قبل نصف قرن لاهتز له عرش السلطان .

أمـا اليوم ، فحماسة الأتراك في العاصمة استانبول ، لمسائل الدين ، هبطت حرارتها كثيراً .. وأرجح الظن أنهم لن يتخذوا حتى التدابير البسيطة إلا بعد مرور وقت طويل ، لأن البطء والكسل (فضيلة) عند هؤلاء الأتراك) .

تقرير سفير فرنسا في استانبول :

ويقول غاستون فييت سفير فرنسا في استانبول، إن الدواوين الملكية في أوروبا كانت تتلقى معلومات من الشرق عن الخطر الوهابي على جزيرة العرب .

وفي عام (١٨٠٣) م . في شهر مارس ، أي قبيل استيلاء الوهابيين على مكة ، أرسل الجنرال برون سفير فرنسا في استانبول ، برقية إلى نابوليون ، يقول فيها :

(أرسل الباب العالي إلى القاهرة خمسين مدفع ميدان ومعها ذخيرتها : لكل مدفع ألف طلقة (قنبلة) . كما بعث إليها ثلاث وحدات من رجال المدفعية . ويقال إن هـــذا مخصص للدفاع عن مكة ضد الأمير الوهابي ، الذي يكتسح الجزيرة العربية جزءاً بعد آخر) .